إسهامات مولود قاسم نايت بلقاسم في الفكر التربوي والإصلاحي بالجزائر.

ط/قدور عصام نور الدين أ.د/ عبد القادر بوعرفة
جامعة وهران2 محمد بن أحمد

- الملخص بالعربية :

تتمحور هذه الدراسة في إبراز القيمة العلمية والإسهام الجبار الذي حمل لواءه المفكر " مولود قاسم" اتجاه الفكر التربوي والتعليمي بالجزائر،بحيث يعتبر الحديث عن"مولود قاسم "هو الحديث عن قامة من قامات الفكر التربـــوي الإصـــلاحي بالجزائر، رجل خاض بقلمه وفتش في هموم عصره وأمته الإسلامية في مواضيع عدة أملتها ظروف ثقافية وسياسية وتاريخية ...

بحيث تتجلى إسهامات الرجل الفكرية والتربوية بالجزائر سواء كمفكر أو إبان إشرافه على وزارة التعليم الأصلي في عدة مشاريع وجهود فكرية تمثلت في: دفاعه عن اللغة العربية دعوته - المحافظة على الهوية الوطنية - التمسك بتعاليم الـــدين الإسلامي، وهي مقومات أفنى فيها حيزا من اهتماماته الفكرية، ظل صامدا في مبادئه كان حريصا عنها حتى يكتسب من خلالها أبناءنا والنشء عموما مقومات الحفاظ على أصالة وتراث ومقومات المجتمع الجزائري، علاوة الى مشروع التعليم الأصلي و تنظيم ملتقيات الفكري الإسلامي التي تعتبر شواهد فكرية على إسهامات الرجل تربويا وإصلاحيا فتحت على إثرها أفاق جديدة في الفكر التربوي والتعليمي بالجزائر .

- الكلمات المفتاحية : التربية والتعليم ، الإصلاح ، اللغة العربية ، التعليم الأصلي ، الأصالة ، التعريب . الهوية .

Abstract:

This monographe basics in projection a valeur scientism and great contribuutory is hold his bridge intellectuel encyclopedias"Moloude Kussem" this direction mind education and learn in algerien .

So discourse "M.K" this discur of stup a mind education and penutentvary in Algeria is men private your peu and search in car modern and notion Islam in many topic this sequence condition cultures -policies -history.

He seuveillance on tradition minustre is many projects mind effort appeard a:-Defend about language arabic

-conservation about dentity national

- Fundmentalion a learn Islam religion

Conservation of tradition and heutage and society basics and organization metings Islam mind this is view minds of man contubute education and reparation.

Education. Learning . réparation. Langage orabic. Tradition learniny .originality .orabizotion didentity

عرفت الجزائر عبر تاريخها العريق محطات فكرية هامة، تميزت بالثراء العلمي والفكري؛ وغزارة التأليف في شتى مجـــلات العلوم والتصانيف. ويعود الفضل في ذلك إلى ثلة من أعلام الفكر والتصوف؛ الذين استطاعوا أن يخلدوا أسماءَهم في سجل التاريخ والحضارة الإنسانية، سواء تعلق الأمر بالعصور القديمة وذلك ما نراه في شخصيات مثل يوبا الثاني، ولوكيـــوس أبوليوس، سان أوغستين، أو في العصور الوسطى أمثال الأخضري، الونشريسي، الداودي، المقري، والسنوســـي... و لم تختلف الحقبة المعاصرة عن غيرها من الحقب الأخرى، فلقد ظهرت شخصيات علمية وفكرية ساهمت في ترقيـــة الفكـــر والنظر، كابن باديس، الإبراهيمي، ومالك بن نبي وعبد المجيد مزيان وغيرهم...

يعتبر المفكر مولود قاسم نايت بلقاسم[1] أحد امتدادات المدرسة الباديسية ورجالتها المبدعين، حافظ والتزم بمبادئها وقيمها عبر مسيرته الفكرية وحياته، كما اغترف من الثّقافة الغربية وخصوصا الثقافة الألمانية، فجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين التراث والتجديد، بين الاتباع والاختلاف،... لم يكن تراثيا نصيا و لم يكن متمردا جذريا، بل انتهج خط الاعتدال والتوسط، فلا انغماس في الماضي العتيق ولا تماهي مع العصر.

عمل مولود قاسم على إرساء وتكريس تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وترسيخ القيم الوطنية، وغرس الروح الأخلاقية، وتجديد الفكر الديني من خلال تنظيم ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر، التي استقطبت ألمع العلماء والمفكرين، وأصبحت الجزائر قبلتهم في كل سنة.

كان رجلاً ملما بالتراث العربي والإسلامي، ومتبحرا في الثقافة العالمية، وذلك من خلال اتقانه لتسع لغات عالمية، مما زادته ثراءً فكريا وتفتحا على الفلسفات العالمية. وقد بوأته مكانة مرموقة في صرح الثقافة المغاربية على العموم.

إن الثقافية الموسوعية التي حَصَلَها مولود قاسم إبان مشواره وحياته الفكرية سمحت له بالاطلاع على الإنتاج الفكري العالمي، هذا الاطلاع استغله مولود قاسم في خطاباته ومؤلفاته، وساهم به في إثراء السّاحة الفكرية والثقافية الجزائرية في مواضيع شتى، وهو الذي كرس نصيبا كبيرا من حياته في التنظير لمعضلات العصر الفكرية والثقافية، والتي تتجلى من خلال خمسة مؤلفات رئيسة شكلت إرثا معرفيا للأجيال عبر نصوصها ومقالاتها الزاخرة؛ وجعلته مرجعية يستند عليها في المواضيع والإشكالات التي تحل وتنزل بالوطن الإسلامي.

لقد أعطى مولود قاسم أهمية قصوى للمجال الحضاري والتعليمي وتسبقيه على مجالات التشييد والبناء للأمة الجزائرية وهي في عز الاستقلال، بل ذلك كان نابع من قناعة راسخة عبر عنها أحمد بن نعمان:"...توفير للجزائر بناة الصرح الحضاري والشخصاني للأمة أسبق وأولى، وكان له اعتقاد راسخ بأن بناء الجدران وملئ الأدمغة والقلوب أولى وأسبق من الاهتمام بملء البطون والفروج والجيوب"[2]

برزت عدة أعمال مهمة في مسيرة مولود قاسم، وهي أعمال جسدها من منطلق أنها أعمال حضارية وضرورية لأجيال الغد، وأولها ملتقيات الفكر الإسلامي، وكذلك هيكلة التعليم الأصلي وتأطير مؤسساته وتشييد منشآته والشّاهد مسجد وجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، وكذلك مبنى المعهد العالي لأصول الدين بالخروبة، كما يعود له فضل في اقتراح تأسيس المجمع الجزائري للغة العربية.[3]

إن غيرته ودفاعه الحماسي على عزة وقداسة الوطن، والتزامه بمبادئه أكسبته شخصية قوية، استحقت الاحترام والتقدير، كما يشهد له بالشجاعة الأدبية والثقافية والدينية التي كان يتصدى من خلالها لأعداء الوطن وخصومه، وكان غيورا على قيمه وأصالته وهويته، ممثلة في الإسلام، والعربية، والأمازيغية.

كان مولود قاسم ينطلق في كل أعماله من البعد الثقافي الجزائري الأصيل، وقد مكنه من مواجهة زمرة من الفرنكفونين فكريا وثقافيا، وخاصة من خلال مشاريعه الفكرية والتربوية، وقد كان لذلك أثر كبير نظرا لاحتدام الصراع الفكري بينهم، وقد قال عنهم:"إن دعوى هذه الغربان التي أكل عليها الاستقلال وشرب، أو ينبغي أن يفعل، هي أن اللغة ليست إلا أداة، والعربية كأداة لمسايرة الركب الحضاري والتقدم التقني غير متهيئة وغير صالحة على الأقل في مرحلتها الحالية، ولذا ينبغي في نظرهم التمهل وعدم التسرع وانتظار الغد البعيد ..."[4]

استغل مولود قاسم المناصب السياسية التي تولاها من أجل تقديم مشاريعه الفكرية والتربوية، بيد أنه سرعان ما أحس بالاغتراب الفكري في وطنه، معبرا عن مدى الإحباط الذي تملكه بعد سنوات من النضال والتضحية من أجل إنجاح

مشروعيه الرئيسين:"مشروعيه العزيزين على نفسه التعليم الأصلي ومجمع اللغة العربية، ففي الأول رأى الهرم الذي أخذ يشيده ينهار بين يديه، وفي الثاني وقفت العراقيل المرئية والمخفية دون ظهوره للنور"[5]

لقد أدرك نايت بلقاسم حجم وخطورة الهوة الثقافية والدينية الموجودة آنذاك في بنية المجتمع الجزائري، والتي نتجت بسبب غياب مؤسسات ومرجعيات رسمية تُعنى بتكوين وتوجيه الأجيال، وتضمن لهم الرعاية والأمن الفكري. لقد حمل مولود قاسم على عاتقه أمانة تقديم البدائل التي تُبدد الفراغ الدّيني والثقافي الذي تعاني منه كل طبقات المجتمع الجزائري، فعمل لأجل ذلك على تنظيم ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت بدايتها محتشمة من حيث الإقبال والمشاركة، ولكنها تزايدت بفعل المثابرة والجد، وتنويع مواضيع ومحاور اللقاءات العلمية، وزادت شهرتها من خلال إقبال كثير من العلماء والمفكرين البارزين على المشاركة فيها.

لقد أثار مشروع التعليم الأصلي جدلا فكريا وسياسيا في خلد خصومه من الفركوفنيين والتيارات اليسارية، خاصة بعد إقبال الشباب الجزائري على الكتاتيب والمدارس التعليمة الأصلية، بعد أن أدرك الشباب أصالة مشروعه التربوي من خلال الأبعد الحضاري، وقوة اللغة العربية، وسماحة الشريعة ...لقد حقق التعليم الأصلي نتائجا باهرة في شهادة البكالوريا، وهو ما زاد من قوة التكالب على هذا المشروع بالذّات، وقد كانت العلة والحجة هي توحيد التعليم.

كان مولود قاسم ملتزما بالمبادئ التي كافح وناضل لأجلها طوال حياته، وقد حدد تلك المبادئ في ثلاثيته المشهورة: الإسلام، الوطنية، والعروبة، عبر الدكتور عبد الرزاق قسوم:"كانت تحمل جوانب متعددة من الخصوبة والعظمة، ما يجعل الحديث عن كل جانب منها مدرسة نموذجية تستحق التحليل والتعليل، منها ما هو إنساني من خلال علاقته الاجتماعية وتفاعلاته المجتمعية وهو جانب خصيب فيها الدمعة والابتسامة ...وجانب عظيم هو الجانب الفكري، العلمي، الثقافي، بكل مقوماته، وخصوصياته وهو يعني الباحثين ومحبي الثقافة والعلم ..."[6]

وللاطلاع على فكر مولود قاسم ومعرفة إسهاماته في الفكر التربوي والتعليمي بالجزائر، ننطلق من التساؤلات الآتية: كيف تجلت إسهامات مولود قاسم في الفكر التربوي والتعليم في الجزائر؟ وما أسس مشاريعه الفكرية والتربوية؟ وما مدى حضور خطاباته وتصوراته في الفكر التربوي والتعليمي الراهن؟

إن إسهامات الرجل الفكرية والتربوية بالجزائر سواء كمفكر أو إبان إشرافه على وزارة التعليم الأصلي، أو كعضو بالمجلس الأعلى للغة العربية، أو بصفته مستشار الرئيس، لتعتبر إسهامات جريئة، ويمكن حصرها في النقاط الآتية:

1 – دفاعه عن اللغة العربية.

يُعتبر الدفاع عن اللغة العربية وترقيتها من أعظم الأعمال التي أعطى لها حيزا كبيرا من اهتماماته وحياته الفكرية، ظل صامدا على مبادئه مدافعا عن قيم وأصالة اللغة العربية، كافح ضد الألسن المتفرنسة بالخصوص، ودحض ادعاءات المتغربين ودعاة الفرنسة، وسن لذلك شعارا ارتسم في صميم شخصيته، وقد عبر عنه بقوله:" تعريب الأمخاخ والقلوب قبل تعريب الألسنة".[7] وتتمحور هذه الرؤية الاستراتيجية من تصورها أن اللغة ليست غاية في حد ذاتها كما يقدمها أنصار المدرسة القومية؛ بل اللغة هي مجرد أداة للتواصل والتعبير، لكنها تحمل وتحفظ خصوصيات أي أمة، فقيمتها لا تكمن في الأداتية بل تكمن في تعبيرها عن الهُوية:"المعروف أن اللغة ليست غاية في ذاتها وإنما هي مجرد أداة للتعبير عما يتمخض عنه التفكير المنطقي أو تتدفق به الاحساسات والعواطف، أو بعبارة أخرى أن اللسان ليس إلا الصورة الخارجية للمخ والقلب، منبعي الأفكار والعواطف"[8].

تجلى اهتمامه وحرصه الكبير على ترقية اللغة العربية ومهاجمة خصومها من خلال نشاطاته ولقاءاته وجهوده الجبـــارة، ويبدو ذلك جليا من خلال سعيه ل:"تأسيس المجمع الجزائري للغة العربية". و لم يقف الأمر عند التأسيس بل نلاحظ ذلك من خلال نشاطه كعضو بالمجمع، حيث كتب جملة من المقالات والخطابات أبرز فيها قوة اللغة العربية، وبرهن من خلالها على قدرتها على مسايرة العصر والتعبير عنه تعبيرا دقيقا وعلميا.

لقد شكلت خطابات مولود قاسم في وقتها حاجزا أمام الغزو الفكري واللغوي، ووجد فيها شباب السبعينات بالخصوص الوجاء والفضاء الذي يعبر عن هُوية الشعب الجزائري، واعتبارها من أبرز العوامل التي تزكي الحس القومي. وحاول دوما تقديمها على أنها لغة القرآن الكريم، وشدد على ضرورة إلزامية تكوين وتعليم النشء باللغة العربية الفصحى؛ لأن النشء هو جيل الغد الذي يحفظ تاريخ وأصل ومقومات الأمة، يقول في ذلك:" نريد من المعلمين والمعلمات أن يفرضوا علـــى التلامذة ألا يتكلموا إلا بالعربية الفصحى في المدارس وحتى في أوقات اللعب ...أي أن يفـــرض الـــتكلم بالفصـــحى والفصحى وحدها في جميع معاهد التعليم بمختلف درجاته"[9]، وقد جاهد وناضل في مسيرة التعريب على جمع شمل المهتمين لمواجهة دعاة الفَرنسة وخصوم اللغة العربية.

اعتبر مولود قاسم اللغة العربية أحد الركائز التي ساهمت في تقدم أمم الجوار زمن الاستقطاب الإسلامي، وهو مـــا عـــبر عنه:" كانت العربية لغة الدراسة والبحث للكثير من العلماء والفلاسفة الأوربيين الذين مهدوا لعصر النهضة الـــتي أدت بدورها إلى انطلاق أوربا ذلك الانطلاق الذي لم يكن ليكون لولا ومنطلقاته الحقيقي ألا وهي الحضارة الإسلامية الـــتي كانت لغتها العربية"[10].

إن اعتزاز مولود قاسم بهويته الجزائرية وبشخصيته العربية والإسلامية والأمازيغية قد ساقه لدفاع عن أي محاولة تمس هذه المرتكزات، فلم يسمح لنفسه الخلود للراحة بعد مسيرة من الجهاد؛ بل خاض ثورة فكرية ثقافية:"فهب بذلك لإحيـــاء مقومات الأمة الجزائرية دينا ولغة ومجدا، بحيث من يطلع على جهود مولود قاسم من أجل التعريب يصعب عليه التعرف بأن الرجل يتقن لغات عالمية ...،لقد كان المرحوم مولود قاسم حريصا على أن تستعيد اللغة العربية مكانتها ومركزهـــا ورغم انخراطه في التعريب أكثر من مرة إلا أنه رفض كل النظريات الفكرية والقومية البعثية التي أرادت أن تجعل من اللغة دينا "[11].

إن دفاع مولود قاسم عن اللغة العربية يعتبر من أشد صور الكفاح الفكري والثقافي في وجه الخصوم من الفرنكفـــونين، ولقد ارتسم ذلك من خلال جل أنشطته:"إنه من القلائل الذين قادوا مبادرة التعريب بجهود جبارة، وقلما نجد من الذين سبقوه في جهوده بل كان عمله ونشاطه كثيفا في هذا المجال، وهذا يعكس مدى قناعة الرجل بما يقول ويفعل، وخصص في هذا المجال مؤلفا فريدا -بجاية الإسلام علمت أوربا الرياضيات بلغة العروبة - وهو عمل أثبت فيه قوة اللغة العربيـــة لكونها قادرة على استيعاب كل العلوم"[12].

بذل مولود قاسم كل مساعيه في إنجاح مشروعه الفكري القاضي بمسألة التعريب وتعميم استعمال اللغة العربية في شـــتى المجالات والاختصاصات، ولابد من الإشارة إلى أن مشروعه هذا كان مخططا بامتياز وفق أسس ومنطلقات محكمة، وكان للرئيس الهواري بومدين الدور الرئيس فيه، حيث كان من أكبر المخططين والمتحمسين له.

كان مشروع التعريب يتجه نحو تعريب الجانب الإداري والتربوي كخطوة أولى، تبصرا منه في كون تعميم ظاهرة معينة في لحظة واحدة هو أمر صعب المنال وعصيب التحقق، بل كان هدفه ذا رؤية عميقة بعيدة الأفق محكم التخطيط، وقـــد عبر عن ذلك من خلال حوار أجرته معه أسبوعية"الجزائر الحدث" الصادرة بالفرنسية قائلا في هذا الشأن : " إن تعمـــيم

اللغة العربية هو الهدف المقصود، ويجب أن يكون العمل فيه مخططا وعلى مراحل وفي هدوء وطمأنينة، إلا أنه في الوقت نفسه يستلزم الحزم والعزم والإصرار...وننظر إلى الجهود المبذولة في التعليم الابتدائي والثانوي، إلا أنه يجب تطوير التعليم العالي وذلك بتعريب العلوم المسماة الدقيقة ...من أجل التعريب التدريجي للتعليم العالي واسترجاع الاستقلالية والاكتفاء الذاتي في هذا الميدان ."[13] وقد أشار المفكر سي مولود على نقطة محورية في مشروعه بخصوص مسألة التعريب، حيث فسر وبين أن الدعوة إلى التعريب و إعادة استرجاع اللغة العربية إلى مكانتها الرئيسة لا يعني كما يعتقد البعض عدم التفتح على لغات العالم، بل العكس هو الصحيح، بحيث معرفة من المزيد من اللغات واجب في عمليه فهم الخطابات العالمية، شريطة بحسب مولود قاسم أن تكون اللغة العربية ذات أولوية من جهة التعليم والخطاب والتفكير.

لقد قدم مولود قاسم بعض الحلول إيمانا منه على ضرورة تقديم بدائل لإرجاع اللغة العربية لغة عمومية للجزائريين، لغة يتوجب التمسك بها لأن تشكل أحد مقومات الشخصية الوطنية والإسلامية، ولأنها ببساطة لغة القرآن، وعلى أساس تلك الوشائج حاول أن يجعل علاقة تلازمية بين اللغة العربية والإسلام، وبرر هذا الربط التضايفي كون التلازم بين اللغة والقرآن يجعل آمال هذا اللغة ومستقبلها مضمونا.

ومن جهة، لا يمكن أن ندافع عن هوية الدولة الوطنية المعاصرة إلا إذا كانت اللغة الرسمية للدولة الجزائرية هي لغة الإسلام ولغة القرآن، وقد عبر في خضم حديثه عن ذلك قائلا:"إن اللغة العربية والإسلام كل لا يتفرق، فالإسلام لا يشجع لغة على حساب أخرى وكثير ما يقال –اللغات الإسلامية-، فليس هناك العربية لوحدها، فكل اللغات التي يتحدثها المسلمون لغات إسلامية لكن العربية لها مكانتها الخاصة لكونها لغة القرآن ولغة النبي واللغة الجامعة لكل المسلمين في شتى أنحاء العالم لغة العلم ولغة الثقافة"[14].

أشار مولود قاسم بأن الاهتمام باللغة العربية بدأ مع القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى أعطى للعربية مكانة وقيمة، ويظهر ذلك من خلال تفضيلها بأن جعلها لغة أخر كتاب، يقول في ذلك مولود قاسم: " ...والإسلام نفسه يعترف بهذه القيمة الجوهرية للغة، فلأن العرب كانت أمة تعتز بلغتها وتفتخر بها، أنزل القرآن بصفة إعجازية لهم وكان إحدى معجزات أسلحة الرسول في التغلب على عنجهية الجاهلية"[15]

لقد نوه مولود قاسم في خطاباته المدافعة عن مشروع التعريب بعد أن أدرك نية تخريبية من جهات معينة، تسعى جاهدة إلى جعل اللغة العربية في الحضيض، ودفع الجزائريين إلى التنصل منها، وقد أورد أن دعاة نبذ اللغة العربية ومحاربتها استعانوا بهجمات تحمل شعار ثُلاثيا:"المسخ، النسخ، الفسخ "، واعتبر أن تجاوز هذا الثالوث يتطلب تضافر جهود العلماء والسّاسة، وأطلق لذلك ثالوث جديدا للمواجهة عبّر عنه بثلاثية:"الحزم ، العزم ، الجزم"، وهي الثلاثية التي عمل بحزم وجهد للدعوة إلى الالتزام بها، نصرة للغة العربية وتحقيقا لمشروع"التعريب"، وقد استغل إيجابيا صيته الفكري ومكانته السياسية والإدارية في فرض وإبراز أحقية تعريب المؤسسات، وضرورة استخدام اللغة العربية كلغة وطنية أولى ورسمية، وأخص بالأولوية الجانب التعليمي والتربوي، باعتباره مجال واختصاص تكوين النشء والأجيال. وقد نجح نسبيا وقتها في إعطاء أولوية اللغة للعربية في شتى مجالات، وفي كافة المؤسسات العمومية ذات الطابع الرسمي والخاص عبر قرار إداري، ومن خلال أيضا ما أفرزته بنود الميثاق الوطني.

ولم يسمح مولود قاسم من خلال مشروع التعريب واستعمال اللغة العربية بترك أي مساحة للثغرات، كي لا يستغلها خصومه في إبراز النقائص والمثالب؛ بل قدم بعض الخطوات والأساليب التي من شأنها تحقيق هذا المشروع واقعيا. كما قدم توجيهات للمنادين بصعوبة التطبيق، أن الصعوبة لا تخلو من أي نشاط أو مشروع، بل ينبغي الحزم والجد في تجاوزها

الصعاب، يقول:" ...وإن الصعود يكلف نوعا من العناء والتعب وبذل الجهد، ولكن آن الأوان لاجتياز هذه العقبة النفسية ...والانطلاق إلى العمل بلغتنا الوطنية والعودة بهذا الموضوع إلى الوضع الطبيعي ..."[16]

كان مولود قاسم يتألم ويتأسف ويتحسر وهو يلاحظ أن واجهة المؤسسات الرسمية العمومية والخاصة تكتب باللغة الفرنسية فقط، وعبر في الكثير من اللقاءات والمواقف أن هذا يعكس صورة ابتعادنا عن لغتنا الأم التي تشكل جزءا محوريا من شخصيتنا الوطنية. ويتفاقم الحال على حد تعبيره في المعاملات والمراسلات الشبه كلية باللغة الفرنسية بين الإدارات، وبين الإدارة والمواطن، ووصف ذلك بالحالة المرضية التي أصابت المجتمع الجزائري، وأن حتمية التخلص منها واجب وأكيد من خلال تطبيق مشروع التعريب:"...مشروع مخطط ومرسوم رسما واضحا ودقيقا، متتابعة متواصلة ومنهجية مرحليا بالاستمرار بالمواصلة بالتزامن في تحقيق العمل بالشمولية في هذه العملية في سائر القطاعات في التعليم في الإدارة في المحيط"[17]

2- الدعوة إلى المحافظة على الهوية الوطنية

لقد شكلت القيم الوطنية بعداً قويا في شخصية مولود قاسم، كان إنسانا وطنيا، هو ابن الجزائر التاريخي، ولعل مواقفه ومبادئه وجهوده المكثفة في خدمة الوطن والأمة تعكس مدى تشبعه وإيمانه بالجزائر، رجل لم يكن في نشاطاته وجهود يؤمن بالشعارات والرموز، بل كان ينظر إلى الفعل وما ينتج وينجر عنه:"كان دأبه التضحية في سبيل الجزائر، وليس التضحية بالجزائر ، أو سمعة الجزائر ، أو شرف الجزائر ، أو سيادة الجزائر ...لم تكن الوطنية عنده كلاما رومانسيا ديماغوجيا يلاك باللسان ويداس بالحذاء بالميدان...أنما حب العلامة مولود قاسم للجزائر كان حبا صادقا وعميقا في الوجدان والجنان، وتصديقا وتجسيدا ومهرا له بالجهاد في الميدان "[18]

إن دعوة مولود قاسم إلى التشبث بالهوية الوطنية ومقوماتها قد أخص لها أهم جهد فكري له المتمثل في مؤلفه:"إنية وأصالة" وهو المسعى الذي هدف من خلاله مولود قاسم في تبيان الأطر والإحداثيات التي يكتسب من خلالها أبناءنا والنشء عموما مقومات الحفاظ على أصالة وتراث ومقومات المجتمع الجزائري، وقد صاغ في ذلك شعارا:"كيف نُكَون أبناءنا مع البقاء على أديم مصرنا ودون أن نصيح نسخة من غيرنا "أو بعبارة أخرى:"أن الإنية والأصالة إبداع فكري وإيديولوجي انفرد به في العصر الحديث...وأضحى اليوم مذهب يمكن وصفه بالمذهب الإنوي والأصالوي ...وخصوصياته الوفاء للسلف لا بالمعنى السلفي الإيديولوجي ولكن بمعناه العقلي والفلسفي، أي البحث في ذاكرة الماضي وعظمائه لإنتفاعه بما لديهم من كنوز قابلة للإحياء والبعث لمعايشة عصرنا المتجدد بكل معطيات تطوره وتقدمه"[19]

تطرق بالإضافة لذلك إلى مسألة"الأصالة والمعاصرة" وقد خصص لها مؤلفا فريدا، حاول من خلاله التوفيق بين الأصالة والمعاصرة وفق أطر محددة المعالم مكشوفة الأهداف، داعيا إلى التمسك الصريح والقوي بأصل وتاريخ الأمة، لأن أي تراجع يؤدي:"أمة لا تحافظ على الأساس والأصل لن يكون لها فصل، تدخل المعارك بلا نصل، ولا تربطها بالجذر همزة وصل"[20].

كان أول ما افتتح به العدد الأول من مجلة الأصالة ديباجة قوية المعنى مسجوعة العبارات والألفاظ، تطرق بين ثناياها إلى أهم مقومات الأمة الجزائرية، وقد حض على الالتزام والتثبت بالهوية الوطنية التي كان ثمن تحقيقها باهضا، ويلزم علينا الحفاظ وصونها كأمانة، وهو ما عبر عنه في افتتاحيته قائلا:"...لقد كافح شعبنا أكثر ما كافح لا من أجل مستوى المعيشة يضاهي مستوى السويد أو كندا، ولا من أجل ترف أو بذخ، ولا من مظاهر، أو شكليات و سطحيات، وإنما كانت

أقوى الدوافع له كفاحه في بطاقة هويته، هي هويته، هي استرجاع شخصيته وذاتيته، هي أنيته وأصالته، اللتان هو بهما من هو، وليس شيئا بدونهما إطلاقا"[21].

3- التمسك بمقومات و تعاليم الدين الإسلامي

إن جهود المفكر مولود قاسم منذ توليه وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية اتسمت بالنشاط المكثف والهادف في نشاطات معينة وأهمها:"التعليم الأصلي، الثقافة الإسلامية، النشاط المسجدي، الشعائر الدينية، أسهمت هذه الجهود والنشاطات ببروز قيم دينية وسط المجتمع الجزائري الإسلامي المحافظ والأصيل، وتخللت بذلك الساحة التربوية نشاطات وبرامج ومناهج تربوية ذات أبعاد دينية داعية لقيم التسامح و المحبة، كاشفة لمبادئ وقيم الدين الإسلامي الحنيف في أسسه وركائزه، وقد سار"نايت بلقا سم" منذ اللحظة الأولى في إشرافه على وزارة الشؤون الدينية في تغير اسمها إلى"وزارة التعليم الأصلي" عام 1970، حمل مولود قاسم جرأة وشجاعة عظمى، إيمانا منه بأن التعليم الأصيل هو سر نجاح مستقبل الأمة الجزائرية، هذا التعليم الأصلي الذي يجمع بين القيم الإسلامية والروح الوطنية والقيم الأخلاقية، تعليم يجعل النشء متمسك بأصول الشريعة، متعمق في اللغة العربية وآدابها، وهو إسهام و إقدام فتح أفاق في الفكر التربوي والتعليمي بالجزائر، و هو جهد كافح وجاهد وصارع لأجله"مولود قاسم "حبا في دينه ووطنه وأمته والتربية والتعليم .

إن دراية مولود قاسم بالأهمية البالغة للمناهج التربوية في تكوين وإنتاج جيل مثقف متشبع بالقيم الإسلامية ومبادئ الهوية الوطنية قد ساقه إلى الإشراف بنفسه على مناهج التدريس في التعليم الأصلي، وقد جعل فيها نوع من التميز عن مناهج التعليم العام، بالإضافة إلى تدريسها لجميع المواد إلا أنها امتازت بتعليم وتدريس العلوم الشرعية والتعمق أكثر في اللغة العربية والاهتمام بالحضارة الإسلامية وتاريخها، والعناية بحب الجزائر و الاعتزاز بماضيها المجيد، وقد عبر عن ذلك الدكتور سليمان الشيخ في خضم شهادته عن رفيقه المفكر سي مولود قائلا عن فكرته بخصوص التعليم الأصلي:" إن معاهد التعليم الأصلي التي أنشئت بمبادرة من المفكر مولود قاسم في مختلف أرجاء الوطن، والتي كان يشرف شخصيا على برامج التكوين فيها وتطويرها، قد ساهمت في إحياء التعليم الذي حافظ على شخصية التعليم الأصيلة، وحصنها وأكسبها المناعة ضد محاولات المسخ الاستعمارية"[22].

إن الانتعاش المبهر الذي عرفته مدارس التعليم الأصلي بعد ولوج أعداد هائلة من شباب الأئمة المتشبع بالقيم الإسلامية ومبادئ قيم الوطنية وعروبته، جعل من حماسه و من البرامج والتكوين الهادف في التعليم الأصلي يحقق نتائجا باهرة في كل الشُّعب والاختصاصات – الأدبية والعلمية والرياضية -، وأصبحت الفوارق العلمية ظاهرة للعيان بين مستوى النشء في التعليم العام وبين نشئ التعليم الأصلي، وخير دليل على ذلك:"...مستوى التكوين الرفيع الذي كان يظهر به تلاميذ التعليم الأصلي ودقة أجوبتهم العلمية، ومنهجيتهم التي كانت تعطي صورة صادقة عن مستوى التعليم في هذه المؤسسات، إلى درجة قضت بعض مضاجع النفوس المريضة وأقلقت بعض الأوساط التي لم تتردد في إعطاء أوامرها لتقليص الفوارق بين الناشئين العام والأصلي، كيلا يظهر علنا الفارق الحقيقي في مستوى التحصيل العلمي بينهما..."[23] ، وهو الشيء الذي زاد من عزيمة المشرف الأول على هذه الفكرة " نايت بلقاسم" في تطوير هذا المشروع الفكري التربوي الهادف، وزاد من عزيمته وقوته، ولكن حجم النجاح الباهر سَبَبَ الرعب والذعر الفكري في نفوس و مشاريع الفرنكفونين والشيوعيين، وبرز حجم وقوة الإقبال الشبابي في مليء الكتاتيب والمدارس التعليمة الأصلية، شباب أحسن بنوعية هذا المشروع الفكري الراقي، ونتج عنه شباب متمكن و متضلع بزمام الفكر الإسلامي والشريعة واللغة العربية معا، و تحققت في ضوئه نتائج باهرة في شهادة البكالوريا، وأدى ذلك لنهايته رسميا، وكان بإمكانه مواصلة نشاطه السياسي والإداري

إلا انه رفض ذلك، غيرة على مشروعه الذي كان مولعا به أشد وأقوى اهتمام وكان بالنسبة له فكرة راسخة في عقله محبا له من إيمانه الخالص.

لقد أولى مولود قاسم "للجامع" دورا محوريا في تكوين وتعليم الأجيال والنشء تربية سليمة، حرص فيها على تلقين آداب وتعاليم الدين الإسلامي من صلاة وآداب وقيم ...، وقد نوه بالدور الذي لعبه المسجد في تاريخ الحضارة الإسلامية الذي يشبه حاله اليوم حال الجامعة، يقول مولود قاسم:"كان المسجد دار علم، هكذا كان جامع قرطبة بالأندلس كان المسجد جامع وجامعة، كان جامعا يجمع الأمة لا للصلاة فقط، ولكن للعلم أيضا."[24]

كما لا ننسى، فضله الكبير في تأسيس مجلة"الأصالة" التي أشرفت عليها وزارة التعليم الأصلي، والتي تحمل عناء كبيرا في جمع مقالاتها وطبع أعدادها باستمرار، كما كان يتشرف بكتابة افتتاحياتها عبر مقالاته الرائعة الهادفة، وقد أعطت أولية قصوى للمواضيع والدراسات الفكرية والثقافية والتربوية، ونظرا لمستواها الرفيع والعالي لقيت صيتا وانتشارا ومقروئية واسعة وطنيا وعالميا، توقف إصدارها عام 1981 بعد مسيرة عشر سنوات من التألق، ثم أعاد بعث من جديد المفكر الجزائري عبد المجيد مزيان.

4- ملتقيات الفكر الإسلامي .

لعبت ملتقيات الفكر الإسلامي دورا كبيرا ومحوريا في الساحة الفكرية في المجتمع والأمة الجزائرية نظرا للهوة الثقافية والدينية السائدة آنذاك، وهو الهاجس الذي دفع بمولود قاسم إلى تأسيس لقاءات فكرية وثقافية تكون بديل لسد هذا الفراغ، وقد ساهم مولود قاسم بقسط وفير و بجهود معتبرة في إنجاح وانطلاق مشروع " ملتقيات الفكري الإسلامي " كرؤية تحمل أبعاد الثقافية والدينية والفكرية بصفة اعم تنعكس إيجابا على المجتمع الجزائري والأمة الإسلامية قاطبة، ولعل جهود مولود قاسم عبر هذه الملتقيات أعطت نشاطا و ثراء فكريا للأمة الجزائرية وكانت انعكاساته هادفة على الفكر التربوي والتعليمي بالجزائر من خلال مناقشات الأساليب والمناهج والنظر في أساليب تقويمها وتقديم مناهج وأفكار بديلة تسمح بارتقاء نوعية هذه المناهج إلى المستوى الزاهر، وذلك هو

المغزى والهدف المحوري الذي كان يسعى له، يقول عن ذلك الدكتور سليمان الشيخ:"إن ملتقيات الفكر الإسلامي التي عمل مولود قاسم على تطويرها وتجديدها كانت منبرا للإسلام الصحيح، المستمد من أصوله الثابتة وهي القرآن والسنة والإجماع المبني على الاجتهاد والمناقشة الثرية التي يثيرها ويديرها في هذه الملتقيات بين أعلام الفكر الإسلامي وفطاحل العلماء الذين كان يستدعيهم...، والمواضيع القيمة التي كانت محور هذه لمناقشات أبرزت حرية الرأي والفكر في الإسلام وتجرده من كل ما يصمه به الجهلة والمغرضون، وحفظت للإسلام ثروة علمية وفقهية وتاريخية يحق للجزائريين أن تفتخر بها"[25].

جعل العلامة مولود قاسم من محاور ملتقيات الفكر الإسلامي وسيلة لتفتيش و مناقشة مشاكل وأزمات عصره الفكرية والدينية والثقافية والاجتماعية، وخصص بذلك الموضوع الرئيس للملتقى الثامن عشر لمناقشة موضوع الصحوة الإسلامية، وهذه هي سمات ومميزات المفكرين والأقلام الرائدة التي تغتنم المنابر والحلقات لتبادل الرؤى وتقديم البدائل في تجاوز هموم العصر ومشاكله، بحيث اعتبر أن مظاهر التفرقة والصراع الفكري بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة، هو انعكاس عميق لتشتتها، وذلك بسبب إهمالهم للغة القرآن وتزايد حدة الاحتقان المخزي بينهم، ورغم وجود مظاهر وممارسات التدين المنتشرة إلا أن ذلك لا يكون كفيل بتحقيق الوحدة واستفاقة المجتمعات الإسلامية من مظاهر التشتت والابتعاد عن قيم الوحدة الإسلامية والتمسك بمقومات الدين الإسلامي الحنيف، وقد رد تأخر المجتمع الإسلامي عن صحوته الى أسباب

وعوامل عدة، منها ما هو منا ومنها ما هو منا خصوصا الفهم الخاطئ للدين وقد عبر عن ذلك بقوله:"...ومن هذه الأسباب ما تتمثل في طرف يريد التحلل من الدين والأخلاق والروح الوطنية وهذا بتأثير عوامل الإذابة الخلقية والإدماج المعنوي المسلط علينا من الخارج والذي لا نزال نعاني من بعض مظاهره ورواسبه اليوم وربما يكون اليوم أكثر من قبل وهو يتمثل في نداء البعض بالانسلاخ عن الدين والتحلل من سائر المبادئ الخلقية والتجرد من الروح الوطنية"[26]

إن تطلعات وآفاق مولود قاسم من خلال ملتقيات الفكر الإسلامي كانت ذات أبعاد ورؤى عميقة جدا، بحيث كانت هذه الملتقيات مناسبة لالتقاء العلماء وأهل الفكر والتاريخ والثقافة والدين، وكانت لأبناء وشباب الأمة الجزائرية فضل حضور هذه الملتقيات وحتى أساتذة ومعلمي الأطوار باختلافهم، وأبعد من ذلك كان المفكر مولود قاسم يشرف شخصيا على طبع كل المداخلات في مجلة وأعداد دورية تجمع مضمون ومحاور وتوصيات الملتقى، ولعل هدفه من ذلك هو"...تبصرة شبابنا بكنوز الإسلام والسنة والتاريخ ...ونمده بعناصر الحكم من خلال المحاضرات والمناقشات والتعقيبات ليستخلص الدروس بنفسه ونعطيه المناهج والمراجع وغيرها ..."[27] ، وهنا تبرز أهمية تطلعات مولود قاسم في إثراء الساحة الفكرية والتربوية والتعليمة في الجزائر، ودوره الرائد اللامع وجهوده الجبارة في إحياء النشاطات الفكرية والثقافية الهادفة على الفكر التربوي والتعليمي بالجزائر والأمة الإسلامية عموما .

إن المشروع الفكري للمفكر"مولود قاسم" المتمثل في: دفاعه عن اللغة العربية والدعوة إلى التمسك بالهوية الوطنية والحفاظ وصون مقومات الدين الإسلامي كان الهدف منه تكوين مجتمع محافظ أصيل، وتكوين جيل مثقف معتدل، محب ومتشبع بالروح الوطنية، مرابط على مقوماته الإسلامية، يحمل بين ثناياه روح التألق والمغامرة والبحث وعمق الأفكار والرؤى المستقبلية وهو ما نجح فيه مولود قاسم نسبيا، وكانت انعكاساته هادفة وبامتياز على الفكر التربوي والتعليمي بالجزائر خصوصا.

لقد عبر وبصورة فكرية راقية ومن خلال انتاجاته الفكرية الزاخرة عن دوره كمفكر في أيامه عن واقعه الفكري والتربوي والديني وأصبحت أفكاره وتصوراه حية عبر مر الأزمنة والعصور متناقلة بين النشء والأجيال، لذلك يعتبر رحيل المفكر الموسوعي"مولود قاسم نايت بلقاسم "خسارة فادحة، وبفقدانه فقدت الجزائر أحد قممها الفكرية والتربوية الشامخة.

بعد مرور أكثر من نصف قرن تقريبا على مشروع مولد نايت بلقاسم، نسجل بكل مرارة تراجع الدولة الجزائرية عن أغلب مشاريع الراحل، فالتعريب تم تجميده بمرسوم رئاسي، وطغت المراسلات باللغة الفرنسية على أغلب المؤسسات العمومية، بل حتى الأسلاك الديبلوماسية لا تلتزم في كثير من الأحيان بإجبارية التحدث باللغة الوطنية.

أما فيما يخص التعليم الأصلي، فلم يعد له وجود يذكر، وحتى تلك المدارس القرآنية يتم حاليا التفكير في حلها ومنعها، وهذه الردة السياسية كانت وراءها بكل تأكيد خصوم الثوابت الوطنية.

الهوامش

[1] ولد مولود قاسم نايت بلقاسم في 6 جانفي 1927 بأقبو بمدينة بجاية حاليا، القبائل الكبرى، التحق مبكرا بالنضال السياسي والتحرري في صفوف حزب الشعب، امتاز بحبه الشديد لوطنه وهو الذي خدمه طول سنوات عدة في مسؤوليات وتكليفات عليا، تقلد المفكر مولود قاسم منصب وزير التعليم الأصلي، وكان عضوا بالمجلس الأعلى للغة العربية ، ثم تقلد منصب مستشار الرئيس للشؤون الدينية، تولى إنجاح عدة مشاريع فكرية من بينها : التعليم الأصلي ، التعريب ، المجمع الجزائري للغة العربية، مجلة الأصلة ، ملتقيات الفكري الإسلامي ،رحل الفقيد في 27أوت 1992، وبذلك تكون الجزائر قد ودعت أحد رجالها الوطنيين المخلصين .

[2] أحمد بن نعمان، مولود قاسم حياته اثاره شهادات ومواقف، شركة دار الأمة، الجزائر، ط2،1997، ص 188.

[3] المرجع نفسه، ص: 189.

[4]مولود نايت بلقاسم (اللغة والشخصية في حياة الأمم) مجلة الأصالة، العدد 17 و18، نوفمبر 1973، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ص: 63.

[5]أحمد بن نعمان، مولود قاسم حياته اثاره شهادات ومواقف، ص: 137.

[6] نقلا: المرجع السابق، ص: 213.

[7] مولود نايت بلقاسم (اللغة والشخصية في حياة الأمم) مجلة الأصالة، العدد 17 و18، نوفمبر 1973، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ص: 63. وكان قد نشر مقالا قبله باللغة الفرنسية بجريدة المجاهد الأسبوعي العدد 136، بتاريخ 15 نوفمبر 1962.

[8] مولود نايت بلقاسم (تعريب الأمخاخ والقلوب) مجلة الأصالة، العدد 23، جانفي 1973، ص: 5 .

[9] مولود نايت بلقاسم (تكلم لغة قومك) مجلة الأصالة، العدد 25، جوان 1975، ص: ه .

[10] مولود نايت بلقاسم (اللغة والشخصية في حياة الأمم) مجلة الأصالة، العدد 17 و18، نوفمبر 1973، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ص: 67.

[11]مريم سيد علي مبارك، رجال لهم تاريخ، دار المعرفة، الجزائر ،2010، ص ص: 136، 137.

[12] المرجع نفسه، ص: 137.

[13]أحمد بن نعمان، (م.س)، ص: 59.

[14]المرجع السابق، ص: 68.

[15] مولود قاسم (قيمة اللغة في نظر بعض الأمم) مجلة الأصالة، العدد، 24، أبريل 1975، ص:3.

[16] أحمد بن نعمان، (م س)، ص 114.

[17] المرجع نفسه ، ص 135.

[18] أحمد بن نعمان ، (م.س)، ص: 214.

[19]المرجع نفسه ،ص 214.

[20]مولود قاسم ، أصالية أم إنفصالية، دار الأمة للطباعة والنشر،ج2،الجزائر ،2007،ص 14.

[21] نقلا : أحمد بن نعمان ، مرجع سابق ، ص 245.

[22] أحمد بن نعمان ، مرجع سابق ، ص 220.

[23] المرجع نفسه ، ص 224.

[24] مولود قاسم (المسجد جامع وجامعة) مجلة الأصالة، العدد 47/46، 1977، ص03.

[25] سليمة كبير ، مولود قاسم نايت بلقا سم ، المكتبة الخضراء ، الجزائر ، ص 28.

[26] أحمد بن نعمان، مرجع سابق، حوار أجراه معه: ع. عبدوس بعنوان: لآفاق الصحوة لا تزال بعيدة. ص 55.

[27] أحمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 124.